الفصل الرابع

المرأة .. زوجة

قصة الزواج

من بين ملايين البشر يلتقي ذكر وأنثى على قَدَر، ليكررا قصة سبق تكرارها بواسطة آخرين، ويمثلها فعلا وسيعيد تمثيلها آخرون، ومع ذلك فإن التمهيد لها، وتوالى أحداثها يحمل من الإثارة والحيوية ما يضمن عدم الملل منها، أو العزوف عنها، لأنها قصة فيها من التباين والتنوع ما جعلنى أصل إلى قناعة بأنها تكاد تصبح كبصمة الإصبع فى اختلافها، وإذا كنت سأصف فى هذا الفصل أنماطا من السلوك الزوجى فإن الإحاطة بها جميعها ليس فى الإمكان.

إن أول شعور يسعد الزوجين بعمق هو شعور كل منهما بأنه أصبح يملك الآخر، وقد يسبق أحدهما الآخر فى هذا الشعور، ولكن بعد استقرار العلاقات الزوجية يكاد يرى كل طرف الآخر بدون عيوب لأنه أصبح جزءًا منه، إنه الحب الذى حافظ على الحياة على هذا الكوكب.

ماذا ترى الزوجة فى الزوج

إن الزوج بالنسبة للمرأة هو السند الأساسى فى رحلة الحياة، إنه هو الذى سيمكنها من أن ترضى تلك الغريزة الجارفة.. غريزة الأمومة، وفى حمايته سيمكنها أن ترعى الصغار حتى يشبوا. وإلى جانبه تشعر بالثقة أمام الناس والاطمئنان فى المعاش.

والشعور الطبيعى للمرأة هو أن تشعر بضعفها أمام قوة الرجل، ورقتها أمام شدته، ونعومتها أمام خشونته، وبطاعتها أمام أوامره، وأن تكون سعيدة بذلك.

والزوجة تتوقع أن يكون الزوج هو القائد دائما، وتعرف أن موقعها الأساسى هو خلفه دائما، تشجعه وترعى احتياجاته، وتوفر له الراحة.

وعلى مدى التاريخ كان المعتاد أن يكون وراء الرجل العظيم امرأة متفانية تتميز بالصفات التى تمكنها من أن تجعل جبهة زوجها الداخلية هادئة، فيجول ويصول فى الجبهة الخارجية، محققا لنفسه ولأسرته نجاحا بعد نجاح.

كيف تدفع المرأة الرجل

وبعض الزوجات لديهن الموهبة - سواء بالسلب أو الإيجاب - التى تدفع الزوج إلى الأمام فى الحياة الاقتصادية أو السياسية

أو الفنية والأدبية، وفى ذات الوقت هناك من يوقفنه «مخلك سر» أو من يدفعن به القهقرى.

نموذج صارخ من النساء

وهناك نموذج آخر من النساء - صحيح أنه نادر - ولكنه نموذج صارخ وذلك هو نموذج المرأة التى تعشق ذاتها إلى درجة الجنون (النرجيسية)، وهؤلاء يتميزن بملبس وتسريحة يعتمدان على الإبهار، ويسعين للحصول على إعجاب الرجال وغيرة النساء، وفى هذا السبيل يدخلن مداخل مرهقة لمن حولهن، والعجيب أن ميولهن الجنسية خاملة، ويستعضن عنها باليول الاستعراضية، وهن يضنّين بأنفسهن وأجسادهن أن يخضعن، كما أنهن زوجات متعبات، وجميع من قابلتهن من تلك النوعية مطلقات بالرغم من الإنجاب.

عندما يتخلى الرجل عن موقع القيادة

ولكن هناك النموذج الذى تكون فيه شخصية الزوج وتربيته بحيث تدفعانه إلى التخلى عن دور القيادة فى بيت الزوجية، وهو فى هذا يتبع نموذج والده، أو أن تركيبه الوراثى ضئيل النصيب من الشخصية القيادية، فإذا أضيف إلى ذلك تربية تكبت تطوير الروح القيادية سواء جاء ذلك الكبت من جانب الأب أم الأم، فإن النتيجة هى هروب هذا الزوج من موقعه الطبيعى، ولما كانت سفينة الحياة

لا تتحمل التوقف فى وسط محيط الزمن، فلا تجد الزوجة مندوحة من أن تسرع بالإمساك بعجلة القيادة وهى تفعل هذا فى أول الأمر رغما عنها، ثم تعتاده بعد ذلك، وقد تستمتع به.

الزوجة القائدة

وأحيانا تميل الزوجة إلى أن تكون فى موقع القيادة، إما عن استعداد فى شخصيتها وإما لأنها اعتادت هذا النموذج فى البيت الذى نشأت فيه واعتبرته الوضع الطبيعى، وهى على استعداد للدخول فى معارك عدة منذ اليوم الأول للزواج لكى تتمكن من الوقوف فى الموقع الذى يتيح لها القيادة، والنساء عادة أطول نفسا، وأكثر إصرارا فى هذه المعارك، والزوج المسكين يتخلى عن موقع بعد موقع، حتى يصل إلى الحالة الذى يتردد فيها كثيرًا عند اتخاذ قرار فى أبسط الأمور دون العودة إلى زوجته.

الزوج المستسلم

والمثير أن الزوج المستسلم لقيادة زوجته فى البيت لا يتحتم أن يكون ضعيفا فى مجال عمله، فقد يكون رئيسا ناجحا وقد يصل إلى أعلى الرتب، وأحيانا يكون قاسيا مع مرءوسيه إلى درجة لا تتناسب مع قلقه من نظرة غير راضية فى عينى زوجته.

موقف المجتمع

إلا أن أغلب هؤلاء الزوجات يحافظن على المظهر الخارجى أمام المجتمع بل وإظهاره فى صورة الزوج المسيطر صاحب الرأى الأخير، وبذلك يضمن هو الجزء المهم، أما داخل البيت فهو المطيع اللين، وكثير من الأزواج راضون عن هذا الدور.. دور الحمَل الذى يلبس فروة الأسد خارج البيت ليخلعها بداخله، وهو فى التعامل خارج المنزل يتأثر بما يرسم له من سياسة بداخله، إلا أن المبالغة فى ذلك الاتجاه عندما تندفع الزوجة فى التحكم فى كل ما يصدر عن زوجها من تصرفات تضر به ضررا بليغا، لأن المجتمع سرعان ما يكتشف أنه صوت سيده حيث إن ملامح التصرفات الأنثوية معروفة للجميع، ويحاول الزوج المسكين أن يقنع العالم عبثا أنه صاحب هذه الآراء والتصرفات الشاذة التى تختلف عن التصرفات والآراء الرجولية، فتبهت شخصيته أمام الناس، بل قد يحاول البعض تخطيه والتعامل مع الرأس المدبر مباشرة فيزداد الأمر سوءًا.

الرجل المدلل

والرجل المدلل الذى اعتاد تدليل الأسرة له ويتوقعه من زوجته والآخرين قد يجد نفسه فى مشكلة بعد الزواج والاستقلال عن الأسرة، فبعض الزوجات يرفضن هذا التدليل رفضا باتا لأنهن توقعن أن يكن هن المدللات، وهؤلاء يمكنهن أن يحولن الزوج المدلل

إلى شخص آخر يقوم بنصيبه فى الأعمال المنزلية ويأكل الطبيخ السيء.

المرأة المدللة

وهناك من الأزواج من يدلل الزوجات تدليلا شديدا، وآخرون يعاملون المرأة باحترام فائق وعادة ما يكون هذا السلوك متوازنا فى أسرة مثل هذا الزوج.

وقد لاحظت أن تدليل الزوج لزوجته يكون على أشده عندما يكون هناك اختلاف شديد فى لونهما؛ أى عندما يتزوج رجل شديد السمرة بامرأة بيضاء أو العكس، ومن المعروف أن هذا التضاد اللونى يتصل اتصالا وثيقا بالمزاج الجنسى.

وليس توارث الأبناء لكيفية التعامل بين آبائهم وأمهاتهم قضية مسلمًا بها، فإن لهذا الأمر استثناءات كثيرة؛ إذ يمكن أن تكره البنت الطريقة التى كانت تعامل أمها بها أباها، ويمكن للولد أن يرفض كيفية معاملة أبيه لأمه، وهنا قد نرى فى البيوت الحديثة نوعا جديدا من التعامل بين الزوجين الصغيرين مما قد لا يرتاح إليه الحموات.

زوج صارم

ومن الأزواج من وجدته صارما باستمرار، ولا يعطى المرأة فى الظاهر تقديرا كبيرا، ومعاملته لها أمام الناس تبدو كمعاملة «سى

السيد» فى ثلاثية نجيب محفوظ، وكنت فى أول الأمر أشفق على مثل هذه الزوجة من الحياة مع مثل هذا الزوج، ولكن بعد فترة، علمت أنه فى أحيان كثيرة يخفى هذا القناع الصارم طيبة وحنانا منقطعى النظير، ولا يكتشف هذا إلا الزوجة فى تعاملها الدائم معه، ومثل هذه الزوجة بالرغم من هذا تحافظ له على هذا الوضع الذى يرضية أمام الناس.

المعـــارك

ولكل امرأة طريقتها فى إقناع زوجها بما تريد طبقا لمعرفتها الطويلة بطِبَاعِه وكيفية الدخول إليه. والمشكلة تقوم عندما تجد الزوجة نفسها أمام زوج ممن لا يمكن إخضاعهم لأنه لا يتصور إمكان التخلى عن موقعه الطبيعى، فتحتدم بينهما معارك كبرى قد تنتهى بالانفصال، أو بقبول تقسيم مناطق النفوذ إلى أن يضعف أحد الطرفين فيتراجع.

تأثير عمل الزوجة

وقد استمرت الصيغ السابقة بالرغم من انتشار عمل الزوجة الموظفة فى المجتمع، إلا أن عمل الزوجة أوجد أنماطا أقل حدة من الصور السابقة فى العلاقة بين الزوج والزوجة التى أصبحت أكثر إطلاعا على أمور الدنيا بزيادة الاحتكاك بالعالم الخارجى، فصارت أكثر ثقة بنفسها وأكثر مرونة فى علاقتها بزوجها الذى أصبح أكثر

تقديرا لها يحكم وضعها الاقتصادى إلى جانبه، فضلا عن إدراكه لأهمية وفائدة تطور شخصيتها فى إدارة البيت وتربية الأطفال، وفى مجتمعات معينة أدرك الزوج أنه لم يعد مستطيعا إذلال الزوجة العاملة كما كان الوضع عندما كانت حياتها معلقة بكل ما يصدر منه، وأود أن أوضح هنا أن عمل المرأة ليس هو الأساس فى العلاقة بين شخصيتى الزوج والزوجة، فإن الشخصية هى محصلة عوامل كثيرة، إنما جاء عمل المرأة ليجعل الصور السابقة فى العلاقة أقل حدة.

أما نقطة توازى القوى بين الزوج والزوجة فتقع حيث تتساوى عدة عوامل منها التركيب النفسى والتربوى لكل طرف، ثم مقدرة كل منهما على إشباع الآخر عاطفيا وجنسيا، ثم مقدرته على أن يوفر للطرف الآخر وضعا اجتماعيا وربما اقتصاديا أفضل.

المودة بعد الزواج

والسحر الحقيقى فى الزواج هو المودة والحب اللذان يتولدان بين الزوجين بعد فترة تطول أو تقصر من بدء الزواج ثم ينموان مع مضى السنين يكون كل منهما قد تكيف وتعايش مع عيوب الآخر بعد ما أصلح منها ما أمكنه واكتشف أيضا الجوانب الطيبة، فتصبح العلاقة بينهما لا انفصام لها بإرادتهما، وعندما تتوالى السنون، وبتأثير الاعتياد والحب يتحمل كل طرف شخير الآخر فضلا عن عاداته الأخرى التى كانت تبدو غير مقبولة فى أول الأمر.

ضرب الزوجات

وبالرغم من تطور العلاقة بين الأزواج إلى مستويات أفضل باستمرار كجزء من التطور الحضارى العام فلا يزال ضرب الزوج للزوجة يمارس فى مستويات مختلفة، والأكثر أنه سيظل يمارس فى نسبة معينة من الزيجات حتى يوم القيامة، وذلك لسببين: أولهما أن نسبة من الرجال يستعملون أيديهم قبل عقولهم تعبيرا عن العجز فى كفاءة استخدام العقل، وثانيهما أن نسبة من الزوجات بعد عدد من مرات الضرب يتملكهن فى الضرب إحساس بمتعة أقرب إلى المتعة الجنسية (ماسوشيزم) وقد تأتى هى إلى بيت الزوجية بهذه الحالة، وفى كلتا الحالتين قد تسعى إلى الضرب، وعندما كنت أسألهن إن كن يعلمن قبل اقتراف الذنب أنهن سيعاقبن بالضرب أم لا.؟ كانت الإجابة شبه الدائمة بنعم، بل منهن من كن يفتقدن الضرب إذا مر وقت طويل بدونه، وكان هذا يبدو لى أول الأمر شيئا عجيبا ويصيبنى بالدهشة، وفهمت بعد ذلك أن مثل تلك الزوجة تعلم أن الضرب هو أقصى ما يمكن أن يصل إليه الزوج، فهى تريد أولا أن تصل بهذا الزوج إلى أقصى ما يستطيعه بأسرع ما يمكن ثم تستمر فيما كانت فيه مستمتعة بمراقبته عاجزا بعد أن لعب بكل أوراقه.

الضرب فى المجتمعات المتواضعة

ويمارس الضرب بصفة عادية فى بعض المجتمعات المتواضعة واعتياد ممارسته لا يصحبه بالتالى مشاعر كراهية أو غضب، ولكنه

يمر كما تمر سحابة صيف لتعود شمس السعادة تغمر البيت كما كانت تفعل دائما.

قصص من مركز تنظيم الأسرة بالمساكن الشعبية

وأذكر أنه دخلت مركز تنظيم الأسرة بالمساكن الشعبية إحدى المترددات وذراعها فى الجبس، فلما سألتها قالت: إنها رأت من نافذتها رجلا يضرب زوجته فى المسكن المقابل، فدعت الله عليه بصوت عال، وسمعها زوجها الذى كان خلفها فضربها «بالحق المدنى»، فجعلت أنظر إليها متصورا قسوة الضرب الذى أدى إلى كسر عظام ذراعها لهذا السبب التافه، وأنا لا أكاد أفهم لماذا لم أجد فى صوتها نبرة مرارة أو على وجهها سحة ألم.

وسرعان ما تعودت على مناقشات مماثلة حيث أذكر أن سيدة معينة كانت تدخل إلى مركز تنظيم الأسرة المذكورة من آن لآخر، لتكرر معى هذا الحوار بعد أن تكشف عن آثار الضرب فى مواضع مختلفة من جسمها.

انظر هنا.. وهنا.. وهنا أيضا.. اكتب.

– اكتب ماذا؟

– اكتب زجاجة فيتامين.

– لماذا؟

– إذا كان زوجى يريد أن يصالحنى فليشتر لى زجاجة فيتامين.

الضرب فى المستويات الأعلى

أما فى المستويات الأعلى فإن الضرب يأتى عادة إما من رجل يشرب الخمر بإدمان أو يتعاطى المخدرات، وإما من آخر سريع الانفعال وجرب الضرب مرة ثم شعر أنه ممكن رغم أن هذا النوع من الرجال قد يكون سريع الندم والمصالحة، ولكن هذا كثيرا ما يضع الزوجة فى أكثر المواقف حرجا، وخاصة إذا بدأ الزوج ذلك السلوك بعد سنوات من الزواج، وبعد إنجاب الأطفال، فتتحمل الزوجة إيذاء وحرجا للمحافظة على بيتها وأطفالها.

وكنت من آن لآخر أحاول أن استثير بعض الزوجات لأعلم العلاقة الضربية بينها وبين زوجها وذلك بالسؤال التالى:

– ألا تخشين أن يضربك زوجك؟

– إنه لا يستطيع.

– لماذا؟

– إن الرجال لا يضربون النساء فى هذه الأيام.

– ولماذا فى هذه الأيام؟

– لأنه لو ضربنى سأتركه وسوف يرتعد لأنه لن يستطيع أن يتزوج مرة أخرى لأن الزواج مكلف.

كيف تتجنب الزوجة الضرب

والذى لاحظته أن الزوجة الحصيفة هى التى تبذل أقصى ما فى وسعها منذ الأيام الأولى للزواج لتضيع على زوجها فرصة بداية الضرب، فلو مرت فترة كافية دون حدوث أى ضرب فإنه يصبح من غير المحتمل أن يحدث ذلك فيما بعد.

الزوج شديد الحنان

وهنا ننتقل إلى نوعية معاكسة من الأزواج، وهى نوعية الزوج شديد الحنان، فهذا له أيضًا مشاكله التى قد تصل بالزوجة إلى طبيب أمراض النساء، فعندما تحضر زوجة فى الشهور الأولى من الحمل تشكو من قيء شديد، يبحث خلفها الطبيب عن زوج شديد الحنان، يكاد يبكى لأنها لا تكاد تأكل والمعروف أن أغلب هؤلاء الزوجات يتحصَّنَّ بمجرد العزل فى المستشفى وحرمان الأقارب وخاصة الزوج من زيارتها. ونفس النوعية من الأزواج يكون عادة مسئولا عن تأخر فض غشاء البكارة لشهور وربما لسنوات. فلا زلت أذكر حالة ظل غشاء البكارة فيها سليما لمدة تزيد على ست سنوات، ولم أبدأ فى العلاج إلا عندما تأكدت من سلامة الزوج، والذى حدث أن الزوجة حملت بعد العلاج مباشرة، وظلا يمارسان حياة جنسية طبيعية بعد ذلك.

وقد يلزم أن تجرى عملية جراحية للزوجة لأى سبب فى خلال حياتهما أو استعمال وسيلة فعالة لمنع الحمل، إلا أن تقاعس الزوج

عن تشجيعها على إجراء العملية خوفا عليها قد يكون سببا فى تأخير إجرائها، أو تكرار الحمل غير المرغوب فيه، وما يترتب على ذلك من ضرر. ذلك أن كثيرا من الزوجات لم يحصلن فى حياتهن على المعلومات الكافية التى تساعدهن على مباشرة وإدارة علاجهن فى التخصصات المختلفة، وهى تتوقع من قرينها أن يكون عونا لها فى اتخاذ القرار، وتراخيه فى القيام بدوره يعد تخليا عنها.

تأقلم الأزواج

ولكيفية معاملة الزوجة لزوجها أهمية كبرى فى تسيير سفينة حياتهما الزوجية بأكبر قدر من الأمان، ذلك أن الزوجة أقدر وأسرع من الزوج فى التأقلم على الحياة المشتركة بين شخصين نشآ فى بيئتين مختلفتين، ولهما تركيب نفسى مختلف، ويكون تأقلم الزوجة هو الأسرع على المدى القصير، أما الزوج فإنه يتأقلم أيضا ليقترب من زوجته، ولكن على المدى الطويل. ويقصر مدى سرعة تأقلمه بحب وذكاء الزوجة.

الزواج بهدف الحرب

وهناك من النساء من لديهن القدرة على أن يستخرجن من الناس بصفة عامة والأزواج بصفة خاصة أفضل أو أسوأ ما فيهم، حيث إن لكل إنسان جانبه الطيب والآخر السيء وإن اختلفت نسبتهما، والتعامل الناجح هو تنمية الجانب الطيب فى

الآخرين وإجبارهم على التعامل معنا به فقط، ولكن يخيل إلى أحيانا أن هناك من الزوجات والأزواج من يتزوج بهدف الحرب وليس بهدف الزواج وحده الذى يجب أن يتميز أولا وقبل كل شىء بالمودة.

الأزمات القلبية والزواج

وقد نشر بحث أثبت أن أكثر الرجال تعرضا للأزمات القلبية هم الأزواج التعساء فى حياتهم الزوجية، فلا شىء أسوأ من أن يكون البيت الذى يعود إليه الرجل من عمله للاسترخاء مكانا لتوتر الأعصاب، بل قد يصاحبه هذا التوتر إلى عمله، ويظل المسكين يعانى من هذا الضغط العصبى لسنوات طويلة فيكون وبالا على صحته ومستقبله.

الزوجة وخبرتها المنزلية

وعندما ينتقل الزوج من الحياة مع أمه إلى الحياة مع زوجته، تبقى صورة أمه هى الصورة النموذجية لسيدة البيت بعد ما كبرت ونضجت خبرتها، بينما عروسه بخبرتها المنزلية الضئيلة تقع فى مقارنة تبدو ظالمة يعقدها زوجها بينها وبين أمه، وتبدأ مشاكل كثيرة من هذه الزاوية وهذه المشاكل تتزايد الآن بسبب اتجاه بعض الأمهات الخاطئ إلى ألا يشغلن بناتهن بأعمال المنزل بحجة عدم تعطيلهن عن الدراسة.

الزوجة الكسولة وعديمة الخبرة

وهناك زوجات كسولات بطبعهن بخصوص خدمة المنزل، وهؤلاء قد لا يتحسَّنَّ أبدا، وإذا تحسَّنَّ فإن ذلك التحسن يظل دائما فى حدود ظاهرية، وهؤلاء يختلفن عن الزوجة عديمة الخبرة، فإن هذه يمكنها التقدم سريعا مع توالى المسئوليات. ومن الملاحظات الطريفة فى حديثات الزواج أن تجد فى سواعدهن آثار حروق من الزيت المتطاير حيث إن عديمة الخبرة تلقى بالبطاطس والسمك فى الزيت المغلى من ارتفاع كبير، صحيح أنهن يتعلمن مع مضى الزمن. لكن الفتاة التى مارست خدمة المنزل المتكاملة قبل الزواج تختصر وقتا كبيرا وتتجنب نسبة من المشاكل وخاصة إذا أدركت أن الطعام الجيد طريق سريع إلى قلب الزوج والسعادة الزوجية، فإذا كان الطعام غير شهى فإن الزوج بعد أيام أو شهور لن يمنع نفسه من النقد والتعليق، والزوجة الصغيرة التى تكفى نفسها مؤونة سماع ذلك النقد سيمكنها أن تتفرغ لما هو أهم، وهو وضع الحصان أمام العربة.

وضع الحصان أمام العربة

والواقع أن وضع الحصان أمام العربة أى ترويض الزوج بحيث تصبح الحياة معه سهلة بدون منغصات أو مفاجآت سيئة، إنما هى عملية تستلزم استعدادا خاصا ومعلومات وجدتها عند مجموعة من

الزوجات اختلفت ثقافتهن ولكن اتفق إدراكهن على كيفية معاملة الزوج المعاملة الصحيحة، وهناك فعلا كثير من الأسر حيث يتعلم جيل الإناث الصغيرات من الكبيرات الوسائل المثلى التى تجعل الرجل طوع البنان، وأهم هذه الوسائل تنمية قرون الاستشعار لديهن التى يمكن بواسطتها اكتشاف الرجل الذى يمكن التأثير عليه بالكيفية المناسبة، وفتيات هذه الأسر يمكن اكتشافهن من السهولة التى يجذبن بها الرجال، فى أى مكان بطلاوة الحديث وليونة الحركات، فكل منهن تعمل لتظهر للرجل ضعفها وغباءها وجبنها أمام قوته وذكائه وشجاعته مهما كان نصيبه من كل هذا، وهو أمر لا ينساه الرجل بسهولة، فقد وجد أخيرا الأنثى التى بلغت من الفطنة الدرجة التى اكتشفت معها عبقريته وشجاعته، فيسعى للوقوف فى طابور المترددين إليها والراغبين فى الزواج منها.

السلام الإيجابى والسلام السلبى فى الحياة الزوجية

ومثل هذه الفتاة قد لا تكون أفضل زوجة ولكنها مريحة إلى حد كبير، وتأثيرها على تصرفات زوجها يأتى بسلاسة فطرية، وهذا مما يؤدى إلى السلام الإيجابى فى البيت، وهو السلام النابع من رضا الزوج، بعكس السلام السلبى الذى تحياه زوجة ألجمت زوجها بعد معارك ومواقف متتابعة فدفعته إلى طلب السلامة فى السلام السلبى، ومن الطبيعى أن تفهم الزوجة أن السلام السلبى غير مأمون العواقب على المدى الطويل.

الزوجة الفنانة فى معاملة الزوج

وقد صادفت فى بداية حياتى العملية امرأة ذات خمسة أطفال وكان نصيبها من الجمال ضئيلا، توفى زوجها فجأة دون أن يترك ما يقيم أود هذه الأسرة الكبيرة، فكان لابد أن تتزوج لإنقاذهم، وكان الزوج الجديد مطلقا له ثلاثة أطفال، وكان مسليا أن أراقب كيف أنه يكاد يموت حزنًا لأقل شكوى تشكوها زوجته الجديدة ذات الأطفال الخمسة، أما هى فكان من بين كلماتها إليه أمامى:

أنا سأبحث لك عن زوجة إضافية كى تساعدنى عليك، أنا لم أر فى حياتى رجلا بهذه القوة.

ولا تكفى الكلمات لتصف السعادة والثقة التى رأيتها على أسارير زوجها عند سماعه هذا الكلام.

وقد بذل هذا الزوج المستحيل حتى أمن مستقبل أولاد وبنات زوجته، وكنت أستعين بهذه السيدة الأمية لتلقى دروسا فى معاملة الأزواج لعدد ممن كنت على اتصال بهن من الموظفات ممن لاقين المشاكل فى بداية حياتهن الزوجية.

عندما يحفظ الزوج جذوة العلاقة العاطفية بزوجته مشتعلة

ومن ناحية أخرى كان يمكننى فى أغلب الأحوال أن أخمن كيفية معاملة الزوج لزوجته كأنثى من درجة عنايتها بنفسها وثقتها

بأنوثتها أثناء الكلام حتى بعدما يتقدم بها السن، فمن الأزواج من يحفظ جذوة العلاقة العاطفية مع زوجته مشتعلة حتى سنوات ما بعد الخمسين، وهى تسعد بهذا وإن لم تستطع أن تواكبه جنسيا، فتظل معتنية بنفسها وهندامها بينما ملاحظاته العاطفية تتردد فى أذنيها فتنفحها بنفحات من الثقة والدلال مما لا يغيب حتى عن العين العابرة، والواقع أن مظهر الزوجة هو انعكاس ومؤشر فعلى لمعاملة زوجها لها، وقد رأيت زوجات اختفت النضارة من وجوههن والأناقة من ثيابهن بتوقف الشحن الزوجى على مدى السنين مثل من انتظر زائرا على العشاء ولم يحضر، فعافت نفسه الطعام، ودلف إلى المنام، ومثل هؤلاء الزوجات يبدون أكبر سنا من حقيقتهن، ولا يحتفظن إلا بالحد الأدنى من المظهر الخارجى، ووقوع اللوم على الزوج فى هذا لاشك فيه، وخاصة الزوج الذى يتعرض لأنوثة زوجته بالتجريح فى لحظات الغضب والانفعال، فإن فعل فليأذن باقتلاع جذور المحبة بل وغرس بذور الكراهية.

التعرض لأنوثة الزوجة

والمعتاد من المرأة أنها تسعد بحسن مظهر زوجها، وتعتنى به ليكون موضع فخرها، ولكنى قابلت نساء عملن ببطء ولكن بإصرار على تحطيم مظهر وأناقة أزواجهن حتى لا يكونوا مطمعا للأخريات.

عندما يهجر الزوج إلى امرأة أخرى

أما ما يجعل نفس المرأة تطير شعاعا فهو أن يتركها زوجها إلى امرأة أخرى، أما أعلى درجات الإهانة فهى أن يتزوج المرأة الأخرى فى مجتمع أصبح تعدد الزوجات فيه أمرًا غير معتاد.

ولازلت أذكر منذ طفولتى أن الناس كانوا يتحدثون عن سيدة تزوج زوجها بأخرى وكان الجيران يعودون من عندها ليقصوا آلام صديقتهم اليومية من جراء ما كانت تفعله الزوجة الجديدة التى فهمت أن زوجها يكاد يطير من فرحته بها، وكان جمهور سيدات الحى يتعاطفن بالطبع مع الزوجة الأولى، ويتناقلن قصصها حتى توفيت فجأة بعد سنوات قليلة، وقيل إنها ماتت كمدًا لأن الزوج كتب أهم أملاكه باسم الزوجة الجديدة، وقيل أيضا إن من رأوها بعد الوفاة قالوا إنهم رأوا على قسمات وجهها علامات الغيظ والألم.

تأثير الهجر على الزوجة

وعندما مارست مهنتى لم أجد مثل هذه القصة أمرًا عجيبا، ولكن الأكبر إثارة هو ما يولده مثل هذا الحدث من زلزلة فى تفكير الزوجة الأولى، فرغم أن بعضهن يتقبلنه فى عجز صامت حيث لا يكون لديهن حيلة إلا أن هناك من تنفجر فى معارك متواصلة مع الزوج والمرأة الأخرى، وهناك من جاءت تطلب مساعدتها فى حمل جديد قد يعيد زوجها بعد أن اشتعل الرأس شيبا، والبعض تبارين فى بعثرة أمواله انتقاما،

أما أخطر التصرفات فهو أن أكثر هؤلاء الأمهات يشتتن تفكير أولادهن وبناتهن بالحديث المستمر عن حدث زواج أبيهم كأنه نهاية الكون، وذلك لسنوات طويلة كفيلة بأن تخرج شبابا محملا بالمرارة، مفتقدا الشجاعة، كل ذلك لأن الزوج الذى يتزوج ثانية يندفع إلى الزوجة الجديدة مخلفا وراءه قصصا تثير فى نفوس أفراد الأسرة الأولى الخوف من الضياع فضلا عن فقدان الشعور بالعدل.

كيف تبدأ شكوك الزوجة

والزوجة هى أول من يشعر باحتمال نشاط زوجها جنسيا خارج البيت، وذلك من حيث الإقبال على الممارسة الزوجية والأوضاع المطلوبة والعدوى التناسلية فى بعض الأحيان.

ونظرا لهول ما يعنيه هذا فإن رد الفعل عند الزوجات يختلف بشدة من واحدة إلى أخرى، ولكنهن جميعا يشتركن فى محاولة التماسك فى المرحلة الأولى وكتم الشكوك، ولا يمكن أن أنسى حالات لعب فيها خيال المرأة بهذا الخصوص دورا كبيرا، ومنهن من صدقت خيالاتها ووضعت زوجها فى أحرج المواقف، ومنهن من وضعت الطبيب أيضا فى موقف حرج بسبب هذه الشكوك.

ويمكن لزواج الزوج أن يدخل بالزوجة الأولى مداخل ومزالق غير مأمونة العواقب مثل التعامل مع الدجالين، ومدعى التنجيم مما يزيد حالتها تدهورًا، وجيبها إفلاسًا.

ماذا يضعف الزوجة

وكنت أحيانا ألحظ على المرأة فى هذه الأحوال خللا فى التفكير وتنسيق الكلام، وهناك حالات أعلم يقينا أنها على حافة الجنون، وهذا أكثر ما يكون عندما لا يكون هناك مصدر للرزق غير هذا الزوج إذا ما خطر لها أن تُغَلِّبَ الكرامة على كل شيء آخر، ففى أغلب الأحيان يكون والداها قد توفيا أو مقعدين، وبعد سنوات من الزواج والإنجاب لا يكون لها فى الدنيا ظل إلا ظل الزوج، فما العمل إذا خان العهد، وتركها لقلة الزاد ووحشة الطريق. وأكثر ما يضعف الزوجة أمام مثل هذا الزواج العوامل الآتية:

١ - كثرة الإنجاب والأطفال:

وهذا أكثر ما يثير السخرية، فقد لقنت مثل هذه الأنثى من قبل أن كثرة الأطفال تربط زوجها إليها بينما وجدت عكس ذلك فى الواقع، فإن كثرة الأطفال تربط الزوجة لا الزوج، فهى بحكم عاطفة الأمومة الغريزية لا تتخلى عن أطفالها وبالتالى كلما كان عددهم كبيرا كانت ملزمة بصورة أكبر بابتلاع مهانة هروب الزوج إلى امرأة أخرى حفاظا على الأطفال الأبرياء، أما لو كان لديها طفل أو طفلان لأدركت أنها بإمكانها أن تعيد التوازن إلى سفينة حياتها حتى بدون هذا الزوج.

حرج الزوج

ومن ناحية أخرى فإن تكرار الحمل يحمل خطورة زيادة تهتك وسقوط الجهاز التناسلى للمرأة وهذا قد يؤدى إلى انحطاط العملية الجنسية نتيجة للتشويه، والرجل قد يعطى هذا الموضوع أهمية كبرى ويظل لسنوات يفكر فى هذا الأمر وقد لا يعلم أن السقوط يمكن علاجه وقد يصل إلى قرار بالطلاق أو الزواج ثانية، وهذا من أهم أسبابهما غير الظاهرة عندنا فى وجود العدد الكافى من الأطفال، ولكن الزوج لا يستطيع أن يصارح أحدًا بالسبب الحقيقى من الحرج، ويظل يختلق أسبابا أخرى للخلاف فى مجال المعاشرة اليومية، والدليل على ذلك أن هذا الرجل عندما يتزوج مرة أخرى إنما يختار فتاة صغيرة لم تلد من قبل.

الأطفال قيد على الزوجة

كما أننا نقابل باستمرار حالات توقف عن استخدام وسائل منع الحمل بواسطة السيدات بسبب هروب الزوج إلى امرأة أخرى بالرغم من إنجابه لعدد كبير من الأطفال، بل هناك حالات اختفاء تام للأزواج من هذا النوع لبدء حياة جديدة فى مكان آخر مع امرأة أخرى، فكنت أرثى للمرأة التى لم تفهم أن الأطفال الكثيرين قيد على الزوجة وليس على الزوج الذى لا يقيده طفل واحد.

٢ - عدم الإنجاب:

وهذا هو الوجه الخلفي للصورة، فإن عدم الإنجاب بسبب الزوجة يحمل في طياته تهديدًا أكثر مما يحمله عندما يكون الزوج هو سبب عدم الحمل، ونحن نعيش في مجتمع يحتاج فيه البيت لطرف جديد يعطي قوة دفع جديدة في البيت بعد هدوء الحماس العاطفي في المراحل الأولى للزواج.

ويختلف الأزواج في تقبلهم للعقم فمنهم من لا يتصور عدم الإنجاب نهائيا، ويرى أن من حقه أن يجرب مع زوجه جديدة. ومنهم من يفرغ عواطفه في رعاية طفل أو أكثر من أطفال الأسرة القريبين، وعدم الإنجاب المؤكد من الحالات القاهرة التي قد تبيح للزوج أن يفكر في زواج جديد، رغم أن الحالات التي يستحيل فيها العلاج أصبحت قليلة بعد التطور المستمر في علاج العقم، كما أن هناك حالات يحدث فيها الحمل بالرغم من توقعات الأطباء بعدم احتمال حدوثه.

٣ - الظروف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للزوجة:

وهذه الظروف تلعب دورا كبيرًا في الوقت الحالي فإن الأمان الاقتصادي للمرأة وخاصة بسبب العمل يعد أفضل تأمين على حياة المرأة الزوجية، وثقافتها تتيح لها القدرة على تسيير أمورها مع زوجها بأفق أكثر اتساعا، كما أن استنادها إلى تعضيد من أسرتها إذا ما اذْلَهَمَّ الجو مما يقوى من موقع الزوجة ويجعله أكثر مناعة.

ومن الزوجات من لا يتركن لأزواجهن من إيرادهم إلا مصروف الجيب بالكاد والفكرة من ذلك كما وضعتها أمامي إحداهن:

لكي يطلقني زوجي ويتزوج ثانية لابد له من نقود، فإذا لم توجد معه النقود فلن يفعل إلا إذا طلب مني نقودا وأعطيتها له.. فهل تتصور حدوث هذا؟

وبعض الفتيات تعلمن هذا في بيئتهن كسياسة عليا لا تقبل المناقشة.

الرجل في الخمسينات

ويتصل بذلك أن بعض الأزواج قد ينتابه إحساس بأنه قد استعاد شبابه ورغبته الجنسية القوية في الخمسينات، وكثيرا ما يزلزل هذا الإحساس كيانه، وهو لا يدرك أن ذلك عادة ما يكون مرحلة تسبق السكون العظيم، فيظل طوال سنوات الإثارة في قلق نفسي كبير، وعلى المرأة أن تدرك أن هذه مرحلة خطيرة تستلزم منها كياسة وحنانا أكثر حتى تمر بسلام.

وأكثر حوادث الزواج الثاني التي تغضب المجتمع تحدث في هذه المرحلة، ويخطئ الرجل إذا لم يفهم أن ذلك التحسن أمر عارض، فلا يرسم حياته الجديدة ويختار المرأة الجديدة بناء على أوهام سرعان ما تنقشع فيقع في بئر ليس له قرار، ويحاول بعد ذلك

الاستعانة بالأدوية وغيرها فى مرحلة يكون فيها أكثر ما يكون تعرضا للأزمات الصحية التى قد تودى به أو تقعده، فإذا مات فلن تكون ذكراه عطرة لدى أسرته الأولى، وإذا أقعد فمثله كالنوتى (الملاّح) فى عاصفة وسط البحر بين شاطئين لا يدرى إلى أيهما يلجأ.

تحول الزوج

وعندما يفكر الزوج فى زواج جديد؛ فإنه ينشر أن بزوجته عيوبا يحاول أن يقنع نفسه والآخرين بها، بل إننى كنت أكتشف هذا الزوج بسهولة عندما تتردد علىّ زوجته عدة مرات حاملة شكوى من الزوج بخصوصها لا وجود لها وبالتالى لا علاج لها، وعندما كنت لا أجد مفرا من التصريح لهذه الزوجة بأنه ربما كان زوجها قد بدأ علاقة جديدة مع أخرى أو أنه يمهد لزواج جديد، كانت الزوجة تنفجر بقصص ووقائع تؤكد هذا التفكير، وأعنف الأزواج عند الزواج بأخرى هم الذين صبروا طويلا على تسلط زوجاتهم واللاتى لم يظهرن الاحترام اللازم لأزواجهن أمام الآخرين، وهؤلاء الأزواج ضعاف الشخصية أصلا يسلكون هذا السلوك عندما يشعرون بضعف زوجاتهم مع توافر الفرصة.

الزواج المبكر

وأحيانا يأتى تهديد الزواج من شعور أى طرف بأنه لم يتح له أن يعيش فترة مناسبة بين البلوغ والزواج، وهذا هو أحد أضرار الزواج

المبكر إلى جانب مضار خطيرة أخرى بالنسبة لصحة الأم والأطفال، وقد قالت لى زوجة فى الثلاثين تزوجت فى الثامنة عشرة وأنجبت ثلاثة أطفال إنها تشعر بعد مضى اثنتى عشرة سنة من الزواج أن حياتها قد نشلت، ذلك أن اندماج الفتاة فى الحياة الدراسية والعملية، ومقابلة أناس مختلفين كان سيمكنها من أن تقود حياتها بطريقة أفضل.

ولكن الأمر يبدو أكثر أهمية بالنسبة للزوج، فزواجه المبكر يجعله أبدا كالقروى الذى ينزل المدينة لأول مرة، فإذا كانت زوجته سمينة بيضاء فكيف الحال مع النحيفة السمراء، وهكذا، ومثل هذا الزوج الذى لم يتح له أن يتحدث إلى كثيرات يمكن أن يرسب فى أول اختبار، وقد يهجر أسرته عند أول منزلق، وقد لاحظت أن بعض الفتيات قد اكتشفن هذا الأمر، وعرفن خطورة الزواج من شاب ممن يطلق عليهم وصف الخام، صحيح أنه يبدو أسلس قيادا، ولكنه يبقى صيدا سهلا لمن يرغبنَ، معرضا مستقبل أسرته للخطر.

غَيرَة الزوجات

والمرأة إذ استثيرت غَيرتها بما يهدد كيانها فإنها قد لا تعرف حدودا فى الانفعال، وقد تصل إلى الدرجة التى تكتسح أمامها مبادئ السلوك الاجتماعى، ولازلت أذكر زوجة اتجهت إلى عشيقة زوجها التى كانت تطل من نافذة شقة أرضية فجذبتها إلى الشارع وخرجت بجزء من لحم العشيقة بين أسنانها.

أما المعتاد فهو أن المرأة تحتفظ بقرون استشعار بالغة الحساسية تدرك بها عن بعد المرأة الأخرى التى يمكن أن تهب ريح الخطر من ناحيتها، وتتصرف مبكرا جدا لدرجة تبدو لمن حولها كأنها تبالغ حيث لا يستدعى الأمر ذلك. ومن هنا تأتى المصاعب والمواقف المحرجة التى تتعرض لها المطلقة والأرملة عند اتصالها بالمجتمعات المختلفة مما قد يضطرهما إلى الانزواء، وتضييق نطاق الاختلاط إلى أدنى حد.

. . . وهناك نوعية من النساء لا يجدن الإغراء إلا فى الرجال المتزوجين وهؤلاء يسببن رعبا فى مجتمعهن النسائى.

كما كان هناك دائما رجال نجحوا فى أن يحتفظوا بزوجتين تتميزان بصفات مختلفة، وكان هذا حلا لبعض المشاكل مثل المرض واستحالة إنجاب الزوجة الأولى أو وقوع الزوج فى حب كبير رغم اكتمال أسرته الأولى وعدم إمكانها الاستقلال ماديا أو اجتماعيا وهو فى ذات الوقت لا يرغب فى الوقوع فى الحرام، وهنا يختلف مجتمعنا عن المجتمعات الغربية التى تغرقنا فى أفلام ومسلسلات تعتمد على خلفية ثقافية وجنسية تختلف عنا تماما، يقوم فيها الرجال والنساء ومنهم المتزوجون بممارسات جنسية خارج نطاق الزواج مرات ومرات ولا يمنع هذا عودة الصفاء العائلى، كما تظهر هذه المواد الفنية المستوردة العنف الإجرامى المنظم وقد تسفه التوجيه الأبوى.

الفكر المستورد

والمشكلة أن أجيالنا الجديدة تشعر بالحيرة إزاء ما يجرى فى هذه القصص المستوردة، ولا يمكن لأحد أن يدعى عدم تأثرهم بها، ولكنها الأيام التى يداولها الله بين الناس، فعلى مدى التاريخ كان هناك دائما الأمة التى تقود العالم فى مختلف المجالات، فقد قاد المصريون العالم لفترة طويلة ثم الفرس واليونانيون ثم الرومان فالعرب ثم أوروبا فأمريكا، ونحن نلاحظ أن الكرة فى سبيلها للتحرك إلى أقدام أخرى.

ونحن لسنا مهيئين لنعيش فى عالم الحرية الجنسية كما أننا لن نقبل ذلك، فإذا علمنا أن دولة مثل السويد نصف مواليدها غير شرعيين، وأن مجلة علمية رفيعة المستوى تحمل إعلانًا دائمًا عن بيع حيوانات منوية معتازة للتلقيح الصناعى من غير الزوج يمكن إرسالها بالبريد وتمنح تخفيضا لِطلّبات الجملة، كما تتوالى ولادة أطفال الأرحام المستأجرة لتنمو فيها نطفة زوجين آخرين، فإننا عند ذلك ندرك البون الشاسع الذى يفصل بين ثقافتنا وقيمنا وبين ما يجرى بسرعة فى بعض الدول المتقدمة فى العالم.

الحرية الجنسية

ورغم أن علماء هذه الدول يدركون خطورة الانهيار الحضارى النابع عن الحرية الجنسية غير المسئولة، إلا إنهم يعلمون أن

الوقوف أمام هذا التيار غير مستطاع، وقد أصبحت مشاكل الجنس والحمل بين سن العاشرة والعشرين خارج نطاق الزواج صداعا دائما في هذه المجتمعات، وتجرى توعية الشباب الصغير لاستخدام وسائل منع الحمل.

وحيث إننا نعيش في مرحلة ما قبل اكتشاف الوقاية من مرض الإيدز فإن ذلك المرض جاء صدمة شديدة للفلسفة الجنسية التى تتبناها هذه الأمم، وأصبح لزاما على من يريد ممارسة الجنس من الغرباء أن يذهبا لتحليل الدم للكشف عن مرض الإيدز، أو على الأقل أن تطلب الأنثى من الذكر أن يستخدم الحاجز الذكرى لتجنب العدوى بقدر الإمكان.

وليست الحرية الجنسية مرتبطة بالتقدم فهناك دول فقيرة تسير في نفس الطريق.. طريق الحرية الجنسية ودول أخرى لم تحرمها العفة الجنسية من التفوق.

فأفريقيا السوداء بها أكبر نسبة من مرضى ووفيات الإيدز في العالم، ورغم كل شيء فإن العفة الجنسية التى تتميز بها المرأة المصرية بصفة عامة مهما كانت ديانتها هى التى جعلت مصر من أقل دول العالم إصابة بمرض الإيدز إن لم تكن أقلها جميعا.